## في مفهوم الحوار واستراتيجيته (١)

# ما يتعدى الحوار بين المسيحية والإسلام

علي حرب

يهتم اللبنانيون منذ زمن بالحوار بين المسيحية والإسلام. وسؤال الحوار يتجدّد عندما تتأزم العلاقات بين الطوائف، أو عندما تُصاب الوحدة الوطنية بنكسة نتيجة لصراع داخلي أو لحدث خارجي.

وبالطبع لا يهتمّ كل الناس بمثل هذا الحوار، وإنما ينشغل به المثقفون من دعاة بناء المجتمع المدني والدولة العلمانية، كما ينشغل به بنوع خاص رجالات الدين من علماء اللاهوت والفقه أو من رؤساء الطوائف والمذاهب، أي الذين ينتجون أساساً الاختلاف، بوصفهم حرّاس الهويات الثقافية أو حماة الخصوصيات الطائفية والمذهبية.

وتلك هي أزمة الحوار بين المسيحية والإسلام في لبنان: لكون بعض دعاة الحوار هم الذين ينتجون الفرقة ويكرّسون الانقسام بعلم أو بغير علم. وهذه الأزمة تحمل الواحد على إعادة النظر في مفهوم الحوار بقدر ما تحمله على إعادة صياغة ثنائية الذات والغير بصورة عامة. فالحوار بين الإسلام والمسيحية ليس هو القضية الأساسية، بقدر ما هو تجسيد لمشكلة اكثر أهمية وخطورة، هي مشكلة العلاقة بين الأنا والآخر، وذلك بصرف النظر عن الاختلاف في الأصول والمرجعيات أو في الأسماء والهويات.

هذه هي المشكلة في أساسها: كيف يمكن للمرء ان يدير اختلافه عن سواه، وأن يمارس هويته بصورة عقلانية تواصلية. وهذه المشكلة هي مشكلة كل اجتماع، صغُر أم كبر، قديماً كان أم حديثاً، يعتنق أهله الإسلام أم المسيحية، اليهودية أم البوذية، التاوية أو الماركسية.

على هذا المستوى من النظر هناك مشكلة بين المسلم والمسلم أو بين المسيحي والمسيحي او بين اللبناني واللبناني العربي، تماماً كما أن هناك مشكلة بين المسلم والمسيحي أو بين العربي والكردي أو بين الشرقي والغربي. انها في المنظور الوجودي مشكلة العلاقة بين النظراء: كيف يسع الواحد ان يقبل الآخر بوصفه شبيهاً له ومختلفاً عنه، ذا حق في الاختلاف ومساوياً له في الحقوق؟

وأنا عندما اعود الى تجربتي لكي أتأمل صلتي بالآخر، على الصعيد الفكري، لا أجد ان مشكلتي هي مثلاً مع المطران جورج خضر اللاهوتي المسيحي الذي يسعني محاورته ومناقشته بصورة عقلانية هادئة، بقدر ما هي مع والدي الذي يعتبر ان كل ما أفعله لا قيمة له مادمت لا أقيم الصلاة. وبالطبع فالمشكلة تصبح معقودة بل تدخل في دائرة الخطر مع الشيخ المسلم الذي يغلق باب الحوار، باتهام الذين يخالفونه الرأي بالكفر والإلحاد.

كذلك الامر على الصعيد العقائدي: لا اجد مشكلتي مع المسيحية، ذلك أنني عندما أفكك مكونات عقيدتي الإسْلامية كما انتهت علاقتي بها، أجدها تنطوي او تنفتح على سائر العقائد. على المسيحية لأن الحق يتجلى في الخلق، وعلى اليهودية من خلال الممارسات الاصطفائية، وعلى البوذية من خلال مبدأ الفناء والذوبان في الله أو في الأئمة والزعماء، وعلى الزندقة من خلال الصراع المرير بين الناس على المكاسب والمناسب بمن فيهم رؤساء الديانات. وكم اعجبني ذلك التاجر اللبناني الذي رمى، مراعاة لزنجي كان يعمل في خدمته ،دولاراً في نهر يقدسه الأفارقة. وكان تعليقي على موقف اللبناني ان قلت له: لا تظن ان عقيدة تقديس النهر لدى البدائيين غريبة كل الغرابة، بل هي تتصل بعقائدنا وفلسفاتنا بعض الاتصال. فقد قال الفيلسوف اليوناني طاليس بأن الماء هو أصل العالم. وفي القرآن وردت الآية: (وجعلنا من الماء كل شيء حي).

طبعاً لا أريد اختزال المشكلة وسلخها عن أرضها. فأنا لي انتماءاتي الطائفية والدينية كما لي انتماءاتي الأخرى، العائلية والقومية أو المهنية والطبقية.. وفي بلد كلبنان كان من الممكن لإسمي أن يكون، إبان الحرب، سبباً لخطفي وهلاكي. هذا فضلاً عن ان الكثيرين من أبناء بلدي يعاملونني بصفتي الطائفية أو المذهبية، من حيث فُرصي وحظوظي او حقوقي، على الرغم من إرادتي عدم الاصطفاف في معسكر طائفتي. ولا أنسى ايضاً الصراعات الدائرة في موطني لبنان بين الطوائف على المكاسب والمناصب من الثروة والمعرفة والسلطة، ما وراء الاختلافات الدينية والثقافية.

ومع ذلك لا أريد تبسيط الامور من وجهها الآخر. فليست المشكلة في لبنان هي مجرد خلاف بين مسيحي ومسلم، ولا هي مشكلة تعدد ثقافي أو لغوي كما يطرحها الأب سليم عبو.

هناك مشكلة داخل كل ديانة بين طوائفها وأحزابها المتنازعة على السلطة والنفوذ والثروة، عبر الصراع على القيم والأفكار، كما شهدت على ذلك الحرب اللبنانية التي كانت نموذجاً لحروب الأعداء وللأشقاء على السواء. وهذا أيضاً ما تشهد عليه التجارب المريرة في العالم العربي، حيث العلاقات بين الأشقاء أنتجت الفرقة، وحيث الشعارات الوحدوية ترجمت الى اختلافات وحشية ونزاعات دموية بين الدول والمجتمعات. من غير ذلك لا نفهم النزاعات الدموية التي جرت داخل الطائفة المسيحية بين الكتائب والأحرار، أو بين الكتائب والقوات أو بين أجنحة الكتائب نفسها. ولا نفهم الصراع والاقتتال الذي حصل بين حركة أمل وحزب الله على الساحة الشيعية، كما لا نفهم كيف يقتل واحد من الجماعة الإسلامية شيخاً من الأحباش، هو أخ له في الدين والمذهب، لخلاف في الرأي والموقف على الساحة السنّية.

**قد تكون العلاقة بالآخر في حدّها الاقصى علاقة تلاحم إما من فرط الألفة والمودة وإما من فرط الكره والعداوة أي علاقة حب وحرب**

من هنا فالمشكلة تكمن في الداخل كما في الخارج. ولا عجب. فكل اجتماع هو حقل للتوتر والنزاع بقدر ما هو بنية للاختلاف والتفاضل. وهذا هو الأصل، اي الفرق والاختلاف او التفاوت والتراتب. وأما الجمع والاتحاد والامور المشتركة في صناعة ومراس، او ادارة وسياسة، بقدر ما هي توليف وتركيب، أو تأسيس وبناء...

وهكذا فمسألة الهوية، كعلاقة بالنفس ذاتها وبالغير، هي أعقد مما نحسب. انها مسألة وجودية في نهاية التحليل. ذلك ان الآخر هو ما لا قوام لنا إلا به، ولذا فالعلاقة به هي ضرورية بقدر ما هي ملتبسة. هي ضرورية لأنه مادام المرء يرمز ويتكلم او يفكر ويعمل، انما يحتاج الى آخر يعنيه ويقصده، أو يتجه إليه ويواجهه، أو يقيم معه علاقات تواصل وتفاهم أو تبادل وتداول. وقد تكون العلاقة في حدّها الأقصى علاقة تلاحم إما من فرط الإلفة والمودة، وإما من فرط الكره والعداوة، اي علاقة حب او حرب.

بهذا المعنى حيثما ولّى المرء وجهه لا يجد سوى الآخر، أكان شقيقاً أم غريباً، صديقاً أم عدواً، أخاً في الطائفة أم زميلاً في المهنة، شريكاً في المواطنية أم نظيراً في الإنسانية.. مما يعني ان كل وعي للذات هو في الوقت نفسه وعي بالآخر، أو بآخر واقعي او متخيل لا انفكاك لواحدنا عنه فيما يفكر فيه أو يقوله أو يسعى إليه.

### الجحيم والفردوس

ولكن العلاقة بالآخر هي ملتبسة بقدر ما هي ضرورية. ومعنى كونها ملتبسة انها ليست شفافة، بقدر ما نحسبها او نريدها، بل ذات أقنعة ووجوه. ولذا فمن نظنه المثل قد يكون هو المختلف الذي نجهله. ومن نحسبه الشبيه الذي نودّ الاتحاد معه قد يكون لغماً ينتظر ساعة الانفجار. هذا ما تشهده العلاقات بين الأشقاء، وهذا ما يقدمه لنا تاريخ الصراعات والحروب والانشقاقات، سواء في المسيحية أو في الإسلام. باختصار هذا ما تشهد به تجارب التوحيد القائمة على التطابق والتجانس: انتاج الخلاف والفرقة. من هنا يبدو تاريخ الديانات التوحيدية، في وجهه الآخر، الخفي ولكن من فرط وضوحه، تاريخ نزاع وانقسام. ولهذا عندما يعجب بعضهم ويسأل: كيف يقتتل المسيحيون وهم على دين واحد، أو كيف يتذابح المسلمون وكتابهم واحد، كان جوابي دوماً للسائل: كأنك لست بمسيحي أو لست بمسلم، وأعني بذلك ان تاريخ الديانات هو تاريخ فتن داخلية أو حروب خارجية كلما جرت وتجري باسم الله وتحت كلمته الواحدة الجامعة. وتلك هي المفارقة.

وهكذا من نظنه الشقيق قد يصير العدو الذي يسعى الى الانشقاق. وفي المقابل من نظنه الغير في الخارج قد يكون وجهنا الآخر الذي نجهله، أو أنا الأخرى التي تتلبسنا أو تقيم فينا لكي تسألنا او تحرجنا، أو قد يكون من نشتهي ان نكون مثله ولا نقدر على ذلك. ولا كيف نفسر هروب الكثيرين من العرب والمسلمين، طلباً للأمان أو العمل، من جوّر دولهم أو فقر مجتمعاتهم، نحو البلدان الغربية، اي لدى من نعتبره الآخر أو من اختراع إشكالية الآخر في العصر الحديث. يكفيني هنا أن أسأل مثل هذه الأسئلة: من هو الآخر بالنسبة إلى الكردي المسلم: إسرائيل ام الدول المسلمة التي لا تعترف بمشروعيته؟ من الآخر بالنسبة الى المرأة العربية: المرأة الغربية ام الرجل العربي الذي يقول: لا حق للمرأة لكي تطالب به.

ولماذا أبتعد بالسؤال إلى حقول الغير وميادينهم. فهل العاملون في القطاع الثقافي هم أكثر قبولاً للآخر من سواهم؟ لا أعتقد ذلك. ربما العكس هو الحاصل: فالمثقفون على الرغم من رفعهم شعارات الحوار الديموقراطي والنقاش العقلاني، ليسوا أكثر ديموقراطية أو عقلانية من سواهم، بسبب نرجسيتهم الثقافية النابعة من اعتقادهم بأنهم يمثلون صفوة المجتمع وضمير الأمم وعقول البشرية، والشاهد ان الساحات الثقافية هي ارض خصبة للحروب الرمزية ولاستراتيجيات الرفض والإلغاء، وذلك حيث الكلمات الجارحة هي احياناً أقسى وأشرس من الرصاصات القاتلة.

وهكذا ليس الشبيه هو دوماً الفردوس، ولا المختلف هو دوماً الجحيم. فالعلاقة بين الأنا والآخر متعددة الوجوه مركبة الأصعدة، بقدر ما ينطوي الوجود على انشقاق والمعنى على التباس. من هنا قولي بأن العلاقة بالآخر هي في أساسها مشكلة وجودية. ومن هنا فإن الحوار يحتاج الى اعادة النظر في المفاهيم التي تنبني عليها ثنائية الأنا والآخر.